القرآن الكريم ودوره في تعزيز القيم الأخلاقية

سجّاد شريفي

يتميّز الدين الإسلامي الحنيف على غيره من الأديان والمعتقدات، بأنه الدين الذي لم يفصل بين العقيدة والأخلاق، فهما كالعروة الوثقى لا انفصام بينهما.

إن هذه الضرورة الأخلاقية هي النتيجة المشرّفة للإنسان، وهي التي جاء بها الإسلام وأكّدها في البعثة النبوية الشريفة، خاصة حينما وصف القرآن الكريم رسول الله بقوله تعالى: **((وإنك على خُلُق عظيم))**.

فبالنسبة لصحّة أخلاق المرء، فإنما تتمثّل هذه الأخلاقية الرفيعة في صحّة عقيدته: **((وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنّة هي المأوى))**.

والمسلمون في عهودهم الزاهرة، كانوا لا يفرّقون بين العقيدة والأخلاق، ولذلك لم يعرفوا أزمة خُلق ولا ضمير، لأنهم فهموا الدين على إنه خُلُق: **((إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر))**، **((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون))**.

وما ذكر القرأن الكريم للأخلاق في مواطن كثيرة إلا أدلّة واضحة لاعتبار الأخلاق، أمراً أساسياً بعد أمر العقيدة: **((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين))**.

وما كان المسلمون أمّة وسطاً، وما جعلهم الله شهداء على الناس، إلا لكونهم أصحاب مبادىء في الحياة، إنطلاقاً من وسطيتهم التي ترتكز وتعتمد على أصالة الفطرة، وصحة العقيدة، وسلامة الأخلاق، فبهذا الثالوث الرباني تتجلّى عظمة وقيمة وأهمية الوسطية الإسلامية لخير المسلم ولصالح الغير: **((وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس..))**.

بهذه الوسطية اهتدى المسلمون وسعدوا وسادوا وهدوا غيرهم بما يتّصفون به من صلاح وإخلاص، وبما يتحلّون به من مكارم الأخلاق ودعوة الحق فكانت لهم العزّة والسيادة: **((وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين))**، **((ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين))**.

الصدق

يحتل الصدق، المكانة الأولى في الفضائل الأخلاقية التي يجب أن يتحلّى بها المرء، كما إن الكذب أبغض الصفات الخُلقية في الإسلام، ومنزلة الصدّيقين أرفع منزلة عند الله بعد الأنبياء، ففي القرآن الكريم: **((فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين))** النساء ٦٩ .

كما إن القرآن ينفي عن الكذّاب صفة الإيمان، لما في قوله تعالى: **((إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله))** النحل ١٠٥.

ومن هذا نتبيّن إن الإسلام يجعل الصدق، أسمى الفضائل الخُلقية، كما يجعل تهوّد الكذب أبغض الرذائل الخُلقية.

وفي الواقع الاجتماعي، يكفي الشخص منزلة بين الناس، أن يكون معروفاً بين الناسً بالصدق، فيكتسب ثقة المجتمع، ثم يستفيد من هذه الثقة في تعامله معهم، كما إن من أسوأ ما يوصف به شخص في مجتمع ما، أن يُعرف عنه تعوّد الكذب، فيفقد الناس الثقة فيه، ثم ما يترتب على فقدانه الثقة فيه من آثار ونتائج.

التسامح

ومن أهم الصفات التي يرغب الإسلام فيها، صفة التسامح والعفو، ولهذه الأهمية فإن الإسلام يرغب في كل الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق هذه الصفة، فالتسامح والعفو إنما يكون عادة في موقف يثير الغضب، فنجد الإسلام يدعو كثيراً في القرآن الكريم إلى مغالبة الغضب، وعدم الانصياع إليه، ومن ذلك في القرآن عن كظم الغيظ: **((وسارعوا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين**

ينفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين)) آل عمران ١٣٣ – ١٣٤ .

والغيظ عادة تعرّض الشخص لأمور من التفاهات، والقرآن يدعو إلى تجاوزها، فيقول سبحانه وتعالى عن سلوك المؤمنين حينئذ: **((وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما))**، ومما يثير الغضب والغيظ، أن يتعرّض الشخص لتحرّش بعض السفهاء به، ولكن القرآن يجعل من صفات المؤمن انه لا يبادل السفهاء سفاهتهم، فيقول عن خُلق المؤمنين: **((وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً))** الفرقان ٦٣.

وإذا وصل الأمر بالمؤمن إلى درجة الغضب، يغفر لمن أثار غضبه، وفي القرآن عن صفات المؤمنين في هذا المجال: **((وإذا ما غضبوا هم يغفرون))** الشورى ٣٧.

والقرآن حافل بالدعوة إلى العفو والتسامح، فما من موضع فيه القصاص إلا ويدعو فيه إلى العفو، ومن ذلك: **((وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله))** الشورى ٤٠.

بل ويدعو القرآن إلى المرتبة العليا التي تبلغ قمة السمو، وهي أن يتجاوز المؤمن مرتبة العفو عمّن أساء إليه إلى مرتبة الإحسان إلى هذا المسيء، فلا يكتفي بأن يعفو عنه، وإنما يقدّم إليه الإحسان، وفي القرآن الكريم: **((ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم))** فصّلت ٣٤.

التواضع

ليس هناك تعارض بين دعوة الإسلام إلى القوة، ودعوته إلى التواضع، فالتواضع الذي يدعو إليه الإسلام، هو بديل للزهو والخيلاء والكبرياء.

أما النظرة الدينية في الإسلام إلى مظاهر هذا السلوك الأخلاقي، فهي ان الكبرياء لا ينبغي أن يكون في حقيقة أمره إلا إليه، لأنه المالك الحقيقي لكل شيء مُلكاً ثابتاً دائماً، فمما جاء في القرآن الكريم عن الله سبحانه: **((وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم))** الجاثية ٣٧.

ومظاهر الخيلاء والغرور من أبغض المظاهر في الإسلام، والقرآن في سياق النهي عن هذه المظاهر، يُذكّر الإنسان بضآلته وضعفه بجوار مخلوقات أخرى: **((ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً))** الإسراء ٢٧.

وفي القرآن الكريم أيضاً : **((ولا تصعّر خدّك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً))** لقمان ١٨.

والقرآن الكريم يذكر ان الله يطبع على عقول الطغاة من المتكبّرين، ومن ذلك عن الله تعالى: **((إنه لا يحب المستكبرين))** النحل ٢٣، والقرآن يشير إلى ان الله يطبع على عقول الطغاة من المتكبّرين، ويعمي بصائرهم، فلا يُفكّرون في العواقب، ولا

يشعرون بسوء طغيانهم وجبروتهم، وهذا يزيدهم طغياناً وتجبّراً، وفي القرآن الكريم: **((كذلك يطبع الله على كل قلب متكبّر جبّار))** غافر ٣٥.

السخاء

يدعو الإسلام بمختلف الأساليب، وبكل الوسائل في الترغيب إلى أن يكون المؤمن سخيّاً في الإنفاق من ماله. والقرآن حافل بالترغيب في الإنفاق، وذلك بأساليب عديدة، منها ان الله يضمن للمنفق أن يعوّضه عما أنفق، كما في القرآن الكريم: **((وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين))** سبأ ٣٩ .

والقرآن الكريم يدعو إلى أن يكون الإنفاق والسخاء صفة للمسلم، تلازمه في كل موقف وكل حال، ومن ذلك قوله تعالى: **((الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون))** البقرة ٢٧٤.

ومن هذا القبيل في القرآن الكريم: **((ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً))** الإسراء ٢٩.

فالإسلام لا يرضى بالبخل، ولا يرضى بالتبذير، فكلاهما رذيلة، والفضيلة هي التوسّط بينهما، وهي السخاء والجود.

وكقوله تعالى: **((الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله))** النساء ٣٦ – ٣٧ . فالقرآن يأمر بالإحسان إلى هؤلاء جميعاً، ومن الإحسان الإنفاق عليهم إذا احتاجوا، بل يشير القرآن إلى ان المقصود بالإحسان هو إنفاق المال، وذلك بأن جعل الحديث في الآية التالية منصبّاً على البخل وإخفاء المال عن المحتاجين.

التعاون

لما كان إيجاد المجتمع، هدفاً جوهرياً في الإسلام، كان من آثار ذلك وجود تشريع متكامل، بخلاف التشريع المتعلّق بالفرد، ومن ذلك وجوب التعاون بين الأفراد في المجتمع في كل ما تقتضيه مصلحة المجتمع، أفراداً وجماعات وأمّة.

وأحقّ الناس في المجتمع بالمعاونة، الأقارب من ذوي الأرحام، والقرآن الكريم يكرّر تأكيد حق ذوي القرابة والإحسان إليهم والبرّ بهم، ويأمر بأداء هذا الحق، ومن ذلك، قوله تعالى: **((وبالوالدين إحساناً ويذي القربى))** النساء ٣٦.، وكذلك قوله عزّ وجلّ: **((وآت ذا القربى حقّه))** الإسراء ٢٦.

ويترتب على ذلك ان سد حاجة الأقارب، واجب فيما بينهم، بمعنى انه حينما يكون أحدهم في حاجة إلى عون مادي أو اجتماعي في أي شأن من شؤونه الضرورية، يجب عليهم أن يسدّوا هذه الحاجة، مثل: **((فآت ذا القربى حقه))** الروم ٣٨.، وكأنه أمر موجّه إلى كل فرد من الأقارب، بخلاف ما يوجّه إلى المجموع، كقوله تعالى: **((وتعاونوا على البر والتقوى))** المائدة، فالأمر موجّه إلى الجماعة وليس إلى الفرد.

فمن صفات المسلم إذن، الاستعداد الدائم للتعاون في كل ما هو خير، مع أي فرد أو جهة، وكل ما يحقّق للإسلام قوّة.

معنى آية

: **((ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون))** سورة النحل الآية ٩٠.

في هذه الآية ثلاثة أوامر أخلاقية تقابلها ثلاثة نواهٍ، لو إن بني الإنسان أخذوا بالأوامر وانتهوا عن المقابل من المنهيات، لبلغوا رضوان الله، ولفازوا بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

ففي الأوامر الثلاثة، نجد الأمر بالعدل وهو التسوية بين الناس وإعطاء كل ذي حق حقه، وبذلك يستريحون ويشعرون بجمال الحياة، ثم يأمر بالإحسان .. والإحسان يسمّى الفضل، فحين تعدل أديت الواجب، وحين تحسن، زدت في التكريم فكان الفضل، ومع ان إيتاء ذوي القربى من طبيعة البشر، فإن الله نوّه به أمراً، لأنه النواة الأولى التي تُبنى عليها المكارم والتكافل الاجتماعي، ولأن التقصير فيه، عقابه أشدّ لأنه صلة الرحم.

وهذه الأوامر، جاء بعدها ثلاثة نهى الله عنها، وهي الفحشاء والمنكر والبغي، لأنها ذنوب وأثام ومفاسد يبغضها الإنسان السوي. وهذه المنهيات إذا شاعت في المجتمع، جلبت العداوة والبغضاء، وصارت الحياة جحيماً لا يطاق..ولما كان الأمر كذلك، كان ختام الآية: **((يعظكم لعلكم تذكرون))** ليتعظوا بمواعظ الله الذي يعلم ما يصلح وما يفسد، فإذا ساد العدل وتبادل الناس الإحسان، وراعوا صلة الرحم، ونأوا عن المنكرات والبغي، كانت حياتهم جميلة وصلتهم بالله متينة .. فنالوا عزّة الدنيا وحسن ثواب الآخرة.